جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

عمليات غسل المخ كوسيلة من وسائل الحرب الفكرية

الدكتور عبدالرحمن محمد العيسوي

الرياض

1410 هـ - 1990 م

عمليات غسيل المخ كوسيلة من وسائل الحرب الفكرية

الدكتور عبدالرحمن محمد العيسوي(*)

خطورة الحملات الفكرية:

تتعرض أمتنا العربية في الوقت الحاضر لحملات شرسة من الحرب الفكرية التي تستهدف النيل من عقائدنا وأيدولوجياتنا العربية وقيمنا الروحية والعربية. وتستهدف هذه الحرب أكثر ما تستهدف قطاعات الشباب، ولذا تسعى لاثارة الشكوك المريبة في أذهانهم، وتسعى للنيل من شعورهم بالثقة في أنفسهم وفي أوطانهم، وتثير فيهم مشاعر الاعجاب والانبهار بالفكر الغربي وبالعادات المستوردة الوافدة التي تزين لهم النمط الغربي من الحياة.

وتحاول هذه الحرب النيل من عضد الشخصية العربية، ومن صمودها وثباتها، ومن رسوخ قيمها بإثارة مشاعر الضعف والانهزامية وروح الاستسلام والتشكيك في قيمنا ومبادئنا وتعاليمنا الاسلامية، وإثارة الشبهات المغرضة حول الدين الاسلامي الحنيف وشريعته السمحة، واثارة مشاعر السخط والضجر والتبرم والتمرد والعصيان ورفض الحياة، والاحتجاج على المجتمع، مما يربي فيهم السلبية واللامبالاة والتواكل والضعف، وتعد هذه الحملات أكثر خطورة من

(*) أستاذ علم النفس بجامعة الاسكندرية. جمهورية مصر العربية.

الحرب التقليدية لأنها تستهدف هدم الشخصية من الداخل والقضاء على الانسان العربي من داخله، وتزداد خطورتها لأنها حملات مقنعة ولا تظهر سافرة علنية، ولأنها تتناول فكر الانسان وضميره ووعيه وادراكه، وتسعى لافساد مشاعره الوطنية واحساسه بالفخر والاعتزاز والثقة والأمل والتفاؤل.

وفي هذا البحث نتناول بالعرض والتحليل لعملية من أخطر العمليات العقلية التي يتعرض لها انسان العصر ألا وهي عملية غسيل المخ

تعريف عملية غسيل المخ:

كثيراً ما يتردد في الوقت الحاضر اصطلاح غسيل المخ، ولذلك يجب توضيح هذا المصطلح الحديث، بطبيعة الحال يتضح للقارىء ان اصطلاح غسيل المخ اصطلاح استعاري يقصد به حث الفرد على التخلي بطريقة متطرفة عن عقائده وأساليب سلوكه السابقة، وأن يتبنى تلك الأفكار الجديدة التي يغرسها فيه الشخص أو الهيئة التي قامت بأسره في الحرب مثلاً، وطبقاً لتعريف إنجلش H.B. English فإن هذا المصطلح يتضمن العمليات التي بموجبها يتم تغيير اتجاه الفرد وسلوكه.

Brainwashing-a metaphorical term for the process of inducing a person to depart radically from his former behaviour patterns and standards, and to adopt those imposed on him by his captor[1].

---

1 English H.B., A Comprehensive Dictionary of psycho-logical and psycho-analytical terms, Longmans, 1958.

وقبل شيوع اصطلاح غسيل المخ كان هناك اصطلاح آخر شائع الاستعمال[1] هو التربية العقائدية أو التبشير العقائدي Indoctrination، ومعناها بالطبع حث الناس على قبول عقيدة ما عن طريق التربيةالتي تستهدف القبول أكثر من التفكير الناقد في موضوع التعلم، وبطبيعة الحال، لهذا التبشير أنواع مختلفة من النظم والسياسة والمثل والمعايير

غسل المخ عملية قديمة:

ويعتقد الناس أن هناك عمليات مخفية تحدث في غسيل المخ، ولذلك كثيراً ما تنتشر الشائعات حول أهوال وفظائع هذه العملية، ولقد انتشرت الشائعات Rumours حول هذه العملية في أثناء الحرب الكورية، وتذهب شائعات التضخيم في هذه العملية الى أن هناك اختراعات رهيبة وحديثة تستخدم في هذه العملية وانها تقوم على أساس أبحاث بافلوف على الكلاب. وغيرها. ولكن الواقع أنه ليس هناك شيء جديد ورهيب كما يتصور الناس، اذ الواقع أن معظم أساليب غسيل المخ كانت معروفة لكثير من المجتمعات منذ عهد بعيد، وكانت هذه الأساليب في الصين مثلا تستهدف تغيير اتجاهات أسرى الحرب تغييراً بعيد المدى، وكذلك تغيير اتجاهاتهم. وكما يقول بروان:

"The Chinese have an additional goal, the production of

---

١ ـ يمكن اطلاق اصطلاح التلقين العقائدي أو التعليم أو الانقداح على هذا الاصطلاح.

المكتبة الأهلية

longlasting changes in the prisoner's basic attitudes and bahaviour[1].

ولقد كانت البرامج الصينية الشيوعية تستهدف الاصلاح الايدولوجي أي اصلاح الفلسفة الاجتماعية السائدة في المجتمع، وتغيير أفكار الناس، أو اعادة صياغة الايدولوجية الاجتماعية، أو تغيير الأفكار والعقائد.

Ideological reform, ideological remoulding, thought reform

وبالرغم من أن هذه الأهداف ليست جديدة في عالم السياسة الا أن الطرق التي اتبعها الصينيون كانت جديدة، فقد استخدموا برامج منظمة ومعدة إعداداً دقيقاً، ولجأوا الى استخدام الأساليب المتعمدة المقصودة لتغيير اتجاهات الناس، استخدموا برامج قائمة على الأسس السيكولوجية، وكانت برامجهم تتصف بالعموم والشمول وبذل الجهد والطاقة الزائدة في سبيل الأهداف التي كانت الصين متحمسة لها أشد التحمس.

عملية غسيل المخ عملية عامة وشائعة في الحياة العادية:

إن الرجل العادي يعتقد أن هناك في عمليات غسيل المخ بعض الأجهزة الشريرة قد تمتلكه، ولكن الواقع أن الناس في جميع المجتمعات تخضع لبعض أجهزة التأثير على عقائدها واتجاهاتها وميولها. فهتلر مثلا غرس مبادىء النازية في عقول الشباب الألماني في عهده، كذلك فإن رجال الدين والسياسة والاصلاح الاجتماعي

1 Brown, J.A., Techniques of Persuasion, p. 268.

يعملون على غرس قيم معينة في عقول الناس، وليس في ذلك أي شيء جديد، بل ان هؤلاء يمارسون هذا العمل منذ قرون عديدة، وتفعل نفس الشيء كذلك حركات التبشير

والواقع ان المدرسة والجامعة ووسائل الاعلام الأخرى انما تطبع عقول الناس بقيم واتجاهات معينة، وهناك بعض الجمعيات السرية والعلنية التي تزود أعضاءها بنوع معين من القيم والتقاليد والاعراف وأنماط السلوك التي يمتازون بها عن غيرهم من أعضاء الجمعيات الأخرى.

فجماعات الكشافة والشبان المسلمين وغيرهما تربي أفرادها على نوع معين من القيم، وإذا لاحظنا ذلك لم يعد غريباً علينا أن نتصور امكان عملية غسيل المخ.

وفي السجون والاصلاحيات وغيرها تجري عملية تأهيل واعادة تكوين لشخصيات النزلاء، ولذلك يقال: إن السجن تهذيب واصلاح ونعني بذلك تهذيب الأخلاق وتعديل السلوك.

ومن الأساليب التي تتبع في هذه السجون الفصول الدراسية والوعظ والارشاد الديني، والمقابلات الشخصية مع الأخصائيين، وعقد المناقشات والندوات، وتستهدف هذه الوسائل الاعتراف بالذنب والتعود على طاعة القانون واحترامه، كذلك تستهدف الالمام بالوقائع السياسية والأحداث الجارية الى جانب تدريبهم على العمل والانتاج، وعلى الجملة تستهدف طرد الأفكار العدوانية أو الاجرامية

وخلق قانون أخلاقي جديد عندهم وفي ذلك يقول: بروان (Brown)

In dealing with the criminals there shall be regularly adopted measures of corrective, and organized discussions to educate them in the admission of guilt and obedience to the law, political and current events production and culture, so as to expose the nature of the crime committed, thoroughly wipe out criminal thoughts, and establish a new moral code[1].

حالة الطبيب فينسينت:

ولفهم مضمون عملية غسل المخ نسوق للقارىء قصة طبيب كان يعمل في شنغهاي، وفجأة بينما كان يسير في الشارع وإذا بقوة من البوليس المسلح تلقي القبض عليه وتقتاده الى السجن أو الى أحد مراكز إعادة التعليم Re-education centre، وهناك وضع في زنزانة صغيرة، وكان يوجد بها ثمانية سجناء آخرين[2]، وكان هؤلاء السجناء الثمانية من قدامى المسجونين الذين خضعوا قبل ذلك لعمليات غسيل المخ، والذين أصبحوا الآن في مركز القيام بتدريب غيرهم، كنوع من الخدمة التي تساعد على سرعة الافراج عنهم، وحضر السجان وأمر الطبيب، وكان يسمى فينسينت Vincent بالجلوس في وسط الزنزانة بينما جلس الثمانية الآخرون يكونون دائرة تحيط به، وأخذوا واحداً واحداً في التشهير به بالقول هذا هو (الاستعماري) هذا هو (الجاسوس) Imperialist and spy ويطلبون

---

1 Brown, J.A., Techniques of Persuasion, p. 271.

٢ - الدكتور عبدالرحمن العيسوي. دراسات في علم النفس الاجتماعي. دار النهضة العربية. بيروت: لبنان.

منه أن يعترف بجرائمه، وأن يدلي بكل شيء للحكومة، ولكنه اعترض ذلك بالقول بأنه طبيب وليس جاسوساً، وأنه عمل في هذه الدولة كطبيب منذ أكثر من عشرين عاما، ولكنهم صاحوا فيه يتهمونه بأن الحكومة لديها كل البراهين والأدلة، وأنها لا يمكن أن تخطىء في هذه المسائل، وأنهم لم يلقوا القبض عليه بدون مبرر، ثم أخذوا في توجيه الأسئلة اليه حول المناشط التي كان يقوم بها لتغطية تجسسه، وكان يقصد بهذه العملية (مساعدة) السجين على الاعتراف، ولذلك كان يمر بها فينسينت خلال الأشهر الأولى من سجنه.

محاكمته واستجوابه المستمر:

وبعد ذلك سيق فينسينت لأول جلسة في محاكمته، حيث وجه إليه القاضي تهمة غامضة، وكانت المحاكمة تعقد في حجرة صغيرة بها ثلاثة أشخاص هم المترجم والقاضي والسكرتير. قال القاضي:

لقد ارتكبت جرائم ضد هذا الشعب، وعليك أن تعترف بكل شيء، ولكن السجين اعترض معلنا براءته، فقال القاضي: إن الحكومة لا يمكن أن تقتل رجلاً بريئاً، ولقد تلا هذه الأسئلة مناقشة حول مناشطه وأعماله ومهنته وأصدقائه ومعارفه خلال مدة بقائه البالغة عشرين عاما.

ثم عاد القاضي وظل يكرر: ان الحكومة تعلم كل شيء عن جرائمك، والمسألة ترجع لك الآن. تستطيع أن تعترف بكل شيء، وبذلك يمكن حل مسألتك بسرعة، ويمكن الافراج عنك حالا

وبعد استمرار هذه الأسئلة عدة ساعات بدأت الأسئلة تتركز حول علاقاته ببعض السفارات الأجنبية، وبعض الجماعات الأخرى، ولقد استمرت هذه المحاكمة عشر ساعات كاملة، ولكن السجين كان ما زال يتعجب لماذا قبض عليه؟!

فأثارت هذه الحالة ثائرة القاضي فأمر بوضع يديه في الحديد من خلف ظهره، وطرده من الحجرة، وأمره بأن يفكر ثانية في المسألة، ولم تمض عشر دقائق حتى استدعاه القاضي مرة أخرى، ولكنه ظل معلناً براءته، فأمر القاضي بوضع السلاسل في رجليه، واقتيد الى زنزانته الصغيرة، وكان هناك في انتظاره الزملاء الثمانية حيث استقبلوه باتهاماتهم المعهودة التي استمرت طوال اليوم، بعد أن قضى طوال الليل مع القاضي المذكور، وفي الزنزانة قال له الزملاء ما يلي:

إن عليك أن تبقى وهذه السلاسل تكبل رجليك، بينما تعلق يديك وراء ظهرك، إنهم لا يساعدونك لأنك رجعي كبير، انك تأكل مثل الكلب بفمك وأسنانك، وعليك أن تعد وعاء الطعام وكوب الشاي بأنفك، ويبقى بعد ذلك عليك أن تشرب الحساء، وإذا أردت أن تتبول فإنهم يفتحون لك البنطلون، وعليك أن تقضي حاجتك في علبة صغيرة في ركن من أركان هذه الزنزانة، وإذا ذهبت الى المرحاض فإن شخصاً يذهب معك ويفتح لك البنطلون، وعندما تنتهي عليه أن ينظفك هو، ولن تفك قيودك وسلاسك هذه، ولن يهتم أي شخص بحالتك الصحية، ولن يهتم أحد باستحمامك انك

تبقى في هذه السلاسل لأنك رجعي، ولكن إذا اعترفت فإنك سوف تعامل أحسن من ذلك[1].

وفي اليوم التالي استولت على فينسينت فكرة ضرورة التخلص من هذه السلاسل، وعلى ذلك أعطى اعترافات عن مناشط جاسوس ما، وبطبيعة الحال، كان هو يعلم تماما أنه يخلق قصة زائفة، ولكن ظهر في قصته هذه بعض الثغرات، ولذلك رفض القاضي اعترافه، وأمر باستمرار المحاكمة، واستمرار نشاط الزملاء!!

وفي الليلة الثالثة غير فينسينت من طريقته، وأخذ يعترف بكل تفاصيل محادثاته وأحاديثه مع زملائه أثناء مدة إقامته بالصين، واستمرت استجواباته التي كانت تتخللها فترات يساق فيها السجين كل ثلاث ساعات لكي يتمشى حتى يتغلب على النعاس، ولكن المشي كان يزيد من تعبه الجسمي، وفي أثناء النهار كان يطلب منه أن يملي على سجين آخر يكتب كل ما اعترف به في أثناء الليلة الماضية، على أن يضيف كل ما يستطيع تذكره من تفاصيل ودقائق، وفي فترات الراحة من الاملاء كان الزملاء يعودون الى «نشاطهم» المعهود.

إسقاط الكثير من الضغوط عليه:

وكأن الزنزانة كلها تهتم باعترافاته، فكانت تحسب عليه كل حركاته وسكناته وألفاظه، وتسجل وتبعث الى رجال السلطة، واستمر هذا الحال لمدة ثمانية أيام بلَياليها كان خلالها يخضع لضغط

1 Brown, J.A., 272.

شديد من الآخرين، حيث يقولون له: إنك تريد السلاسل!!
إنك تريد أن ترمى بالرصاص!!

وإلا فإنك ينبغي أن تكون أكثر اخلاصاً، عندئذ تصبح السلاسل غير ضرورية لك، وأخيراً بعد أن أنهكه التعب والاضطراب، واحتواه شعور باليأس، وبأنه لا حول له ولا قوة، استسلم، وتوقف عن المقاومة.

ومنذ هذه اللحظة قيل له ان القاضي يعتبر (سيدك) الحقيقي، فعندما يسألك كم جاسوساً كان عندك، عليك أن تعطي أي رقم لكي ترضيه، وإذا قال لك هذا العدد فقط، تقول كلا. هناك أكثر من هذا يا سيادة القاضي، فإذا قال كانوا مائة جاسوس قل نعم، والآن لا تهتم بالسلاسل التي تغل يديك، وليس من الضروري أن تميز بين الصواب والخطأ، وما عليك الاّ أن تنتظر متى ترمى بالرصاص وتتخلص من كل هذا.

وبعد ذلك بدأت اعترافاته التي كانت فعلا مرتبطة بأحداث حياته الحقيقية، وبعد ذلك بدأ يدلي بأقوال عن أعمال الناس الآخرين، ولم يمض أسبوعان كان خلالها يقع تحت ضغط القاضي وزملاء الزنزانة cell mates حتى أصبحت هذه الاعترافات أداة لانذاره بالفضيحة والتشهير، ومع استمرار الضغط عليه للاعتراف بكل شيء: اعترف بكل شيء. اظهر نظافتك، اعترف على زملائك وأصدقائك. وبعد انقضاء حوالي شهرين على القبض عليه أصبح مستعداً للاعتراف بجرائمه وأصبح مقتنعا بأن ينظر لنفسه من

زاوية الناس الآخرين، تلك الزاوية التي لا تفرق بين تبادل الأخبار والمعلومات والتجسس، وعلى ذلك فقد اعترف هو أنه أثناء حركات التحرير liberation الوطني عندما رأى مدفعية الشيوعيين تجرها الخيول، ذكر ذلك لصديق أمريكي، وعندئذ صاح القاضي فيه قائلا: إن هذا الأمريكي كان جاسوسا يجمع المعلومات العسكرية عن الجيش الصيني، وعلى ذلك فهو يعد مذنباً لامداده بمعلومات على سبيل التجسس.

التغير المفاجيء في معاملته:

وبعد أن اعتنق فكرة الآخرين عن هذا العمل، تلك الفكرة التي لا تفرق بين الأخبار والمعلومات والتجسس، وجد أن معاملته طرأ عليها كثير من التحسن، فالقيود الحديدية فكت من يديه، وسمح له بالجلوس أثناء الحديث مع القاضي، الذي أصبح يتحدث إليه بشيء من الود، وأخبره أن الحكومة تبلغه أسفها للوقت الصعب الذي مر به، وأنها ترغب أن تكون متساهلة معه، وأنه سوف يفرج عنه فوراً إذا أدلى باعترافات كاملة، وعليه أن يجد ويجتهد في اصلاح نفسه، وتقدم له المساعدة بطريقة ودية في كتابة اعترافاته، ولكن عندما كان يرفض عمل شيء ما، كان الحديد يعود الى يديه لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، ولكنه كان يسمح له بالنوم لمدة ٨ ساعات، واستجواباته كانت بطريقة هادئة، وتخلص من ضوضاء زملاء الزنزانة، ولكن مع ذلك كانوا ينادونه برقمه، وليس باسمه، وكان يمنح طعاما رديئاً، وكان عليه أن يمشي على رأسه لمدة ٤٥ ثانية في

سباق مع غيره من السجناء، وكان ينتقد إذا أخفق في ذلك.

وبعد أن مضى ثلاثة أسابيع على اتباع سياسة (التدليل) هذه، أصبح عليه أن يشترك في برامج اعادة تعليم الزملاء Re - education programs الذي كان يستغرق من عشر ساعات الى ست عشرة ساعة يوميا.

مناقشات مكثفة في نصوص مغرضة:

والمنهج المتبع في هذا البرنامج هو أن يقرأ حارس الزنزانة قطعة من احدى الصحف الشيوعية، أو إحدى الكتيبات، أو الكتب، وكان على كل عضو من أعضاء الزنزانة مناقشة هذا النص وانتقاد آراء الغير، وكان على الجميع أن يتعلم كيف يعبر عن نفسه من وجهة نظر الناس، وكانت معظم النصوص تدور حول إهانات الدول الغربية في الماضي للصين، وكانت تركز على فكرة أن فينسينت كان يعمل تحت ستار الطب. كجاسوس طوال حياته وعميل للاستعمار وهكذا، وعندما كان يدلي بآراء يعتبرها حارس الزنزانة خاطئة، كان يطلب من أن (يحلل) نفسه، وأن يبحث عن أسباب نزعاته الرجعية. فالمناقشات كانت تبدأ عقلية وسرعان ما تتحول الى نقد ذاتي. وباستمرار هذا المنهج قبل فينسينت هذه الأفكار وبدأت تكون جزءاً من كيانه الفكري الذاتي.

كانت المناقشات هذه تستمر ١٢ ساعة يومياً داخل الزنزانة، حيث يناقش الفرد فيها نفسه، ويراجع أفكاره، وينتقدها، ويبحث

في ذاته، ويفضح أفكاره «السيئة»، في هذه المرحلة أصبح يشار الى السجناء على أنهم طلاب في مدرسة، ورجال الحرس على أنهم معلمون في هذه المدرسة.

والشخص الجاهل في هذه المدرسة لابد أن يتعلم بالمناقشة وبالاقناع. وكانت تتضمن مناهج هذه المدرسة عرضاً لكبرى المشكلات الدولية مثل انتصار الشيوعيين في الحرب الكورية على الاستعمار، مشكلة الديمقراطية في العالم، والخطة الخمسية والثلاثية للتنمية الصينية من أجل بناء المجتمع الاشتراكي، وكذلك الحرب بين الهند والصين، وكانت كل مشكلة تحل عن طريق عقد المؤتمرات.

النقد الذاتي:

وعندما كان فينسينت يبدي أي معارضة أو كراهية نحو العقيدة الشيوعية كان يعاب عليه انه كان «ذاتيا» جدا أو فرديا.

وكان جزء من النشاط اليومي مخصصاً لنقد مظاهر الحياة اليومية مثل السلوك العام للشخص، عاداته في الأكل والنوم، شعوره نحو الآخرين، والرغبة في أداء الفرد لدوره في الزنزانة

ومثل هذا النشاط يشبه ـ الى حد كبير ـ ذلك النشاط المتضمن في عملية العلاج النفسي الجماعي Group psychotherapy فيما عدا التفسيرات أو التأويلات التي تعطى لسلوك الفرد وعاداته، فبدلا من تفسير هذا السلوك في ضوء نظريات فرويد واستخدام مصطلحاته،

كانت تعطى مصطلحات ماركس بدلا من فرويد، فمثلا يقال ان فينسينت يعاني من الاستعمار، أو من البرجوازية ومن مطامعها، وجرائمها واستغلالها، وإذا سقط منه وعاء كان يغسله، فإنه بذلك ضيع أموال الشعب، وإذا شرب كثيراً من الماء فإنه كان يمتص دماء الشعب، وإذا أخذ حيزاً واسعاً أثناء نومه فإنه بذلك يمارس سياسة التوسع الاستعماري Imperialist expansion

استخدام التهديد:

وبعد مرور شهر على هذا النحو أعيد استجوابه Interrogation لكي يدخل بعض التحسينات على اعترافاته، وفي هذه المرة كان القاضي يركز حول بعض الأحداث الواقعية في حياته، حيث قال له: من ذلك الاعتراف العام غير الدقيق، يجب أن تبدأ باعتراف أكثر دقة وتشخيصاً concrete أو أكثر تجسيماً

ولقد ظهرت في اعترافاتك ثماني جرائم منها العضوية في منظمة فرنسية يمينية، والتجسس، الانضمام لبعض الجماعات الرجعية، وبعض المناشط المضادة للشيوعية، وإذا أنكرت هذه الجرائم فإنك سوف تفقد نتائج التحسن الذي طرأ على معاملتك وتعود الى ضوضاء الزملاء والسلاسل.

اعتبر اعترافاته حقائق:

وبعد ذلك قضى ١٤ شهراً في إعادة التعلم، وفي خلال السنة الثالثة من سجنه عمل تنقيحاً لاعترافاته، وبدأ ينظر لاعترافاته على

أنها حقائق حتى وإن كان غير مقتنع كلية بها، ولكنه يقبلها حتى يتجنب الوقوع في المشكلات، لأنه ما ان ينكرها حتى تعود إليه الصعاب والمشكلات، وعندئذ أخبروه أن اتجاهاته قد تحسنت كثيراً، ومن ثم نقل الى مكان آخر في السجن حيث عاش في انسجام مع زملائه الأسرى، وكان يسمح له بقضاء ساعة في نشاط ترويحي خارج جدران السجن Outdoor recreation الى جانب تخصيص بعض الوقت للترفيه داخل الزنزانة، وبعد ذلك استدعي للادلاء باعترافاته الرسمية باللغة الفرنسية والصينية بينما كان رجال السينما والصحافة والاذاعة يلتقطون له الصور، وكذلك قرأ اعترافاته بصوت مرتفع حيث سجلت بواسطة جهاز تسجيل خاص، وبعد ذلك استدعاه القاضي وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة التجسس وجرائم أخرى ضد الشعب. وكان بطبيعة الحال قد قضى هذه المدة فعلا في السجن، ثم أذاعت وكالات الأنباء في الداخل والخارج هذه القصة، ولم يمض يومان إلاَّ وكان فينسينت على ظهر سفينة انجليزية تقله الى هونج كونج Hong-Kong.

علاجه وتشخيص حالته:

وقد خضع فينسينت لدراسة سيكولوجية دقيقة بعد اطلاق سراحه، وللأسف أظهر الفحص الطبي النفسي أنه أصبح شخصاً مضطرباً وخائفاً، وأنه يشعر بأنه مراقب بواسطة بعض العملاء، وان هناك شخصا ما يتجسس عليه «لأنني عائد من العالم الشيوعي» وكانت فكرته عن المحلل النفسي الذي تولى علاجه، انه لم يكن مجرد

طبيب نفسي، ولكنه على اتصال ببعض المنظمات الاستعمارية التي لابد وأن تؤدي به الى خطر محقق (الى فينسينت نفسه) وكان يعتقد أن أسئلة المحلل مملاة عليه من جهة أخرى غير المحلل نفسه وما على المحلل الا تنفيذها. بل إن فينسينت نسي بعض مظاهر الحياة داخل السجن نفسه وكان يعتريه شعور بالضياع في قلب العالم الرأسمالي لأنه قادم من العالم الشيوعي، وبأنه لن يحصل على وظيفة، ولن يحفل به أحد، كما كان يعاني من الشعور بعدم الأمان، وأصبح عليه أن يعتني بنفسه وأن يرعى شئون نفسه بعد أن كان غيره يقوم بهذه المهام، فأصبح عليه أن يتخذ قرارات بشأن حياته العامة والخاصة.

أثر البقاء الطويل بالمستشفى أو السجن:

والواقع أن عملية غسيل المخ تشبه ـ الى حد بعيد ـ المعيشة لفترة طويلة داخل المستشفيات لأن المريض ـ بسبب حالته المرضية ـ يرتد الى حالة تشبه الاعتماد على الغير مثل الطفل، وانه يقبل الجو الموجود بالمستشفى كجزء من حياته وفي حالات البقاء الطويل في المستشفى فإن حياة المريض تنطبع على هذا الروتين، وبذلك يصبح غير قادر على ممارسة الحياة خارج المستشفى، ومنظمات غسيل المخ تكون الحياة فيها مضبوطة لدرجة كبيرة، ومنظمة تنظيماً دقيقاً بحيث تحقق الأهداف المطلوبة، ويرجع ذلك الى تغلغل السيكولوجية الموجودة في البيئة الى داخل الحياة الانفعالية للفرد، ولعل هذا التغلغل هو الحقيقة النفسية الظاهرة في عملية إعادة تكوين أفكار الناس.

The penetration of the psychological forces of the environment into the inner emotions of the individual person is perhaps the outstanding psychiatric fact of thought reform[1].

إن عملية غسيل المخ Brainwashing تستهدف بطريقة عمدية Deliberately سلخ الفرد أو تجريده أو نزعه أو سلبه من ذاته His self-hood وبعد ذلك تحاول هذه العملية بناء شيء جديد على أساس ما بقي من آثار في هذه الذات، وعلى ذلك فالبقاء بالمستشفى لمدد طويلة Long hospitalization يؤدي الى هذه النتيجة ولا سيما إذا كانت الخدمات الطبية سيئة، وإذا فقد المريض فرصة الاتصال الاجتماعي Social contacts ونحن نلاحظ على حالات الجنون التي تتبع حالات الفصام Schizophrenia، وكذلك حالات التدهور التي تحدث في حالة التقدم في السن، هذه الحالات في الواقع عبارة عن حالات غسيل مخ تحدث عفواً أو سهواً أو بدون قصد Unwittting

وهناك حالات من العصاب النفسي Institutional neurosis[2] التي يرجع سببها لا الى المرض نفسه، ولكن لظروف المستشفى ذاتها، وذلك عندما تضطر المستشفى الى وضع المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم في قطعان كاملة، وتوكل العناية بهم الى نوع رديء من الممرضات والممرضين.

---

١ المرجع السابق Brown.

٢ ـ يمكن تسمية هذا العصاب بالعصاب النفسي الماريستاني نسبة الى المرايستان أي المستشفى، كذلك يمكن اطلاق اصطلاح (أمراض البيئة الرسمية للعلاج) كما يمكن إطلاق اصطلاح العصاب النظامي على هذا المرض.

والقصد في الواقع من تجميعهم في جماعات هو توفير العنصر الاجتماعي حتى يمكن الاحتفاظ بشخصياتهم، ولكن التعود على حياة المستشفى بما فيها من الاعتماد على الغير والبعد عن العالم الخارجي تطبع شخصية المريض بطابع الخوف وعدم القدرة على التكيف مع البيئة الخارجية.

التأثير البيئي من طرف واحد:

وفي الواقع في عملية غسيل مخ الأسرى، يكون الأسير تحت تأثير يلظروف البيئية التي تضغط عليه، بينما هو في الواقع لا يمارس أي نوع من الضغط عليها، وعلى ذلك ينتهي الأمر بأن تتغلب القوى المؤثرة الموجودة في البيئة بالتغلغل الى ذاته، ولا يستطيع هو أن يؤثر فيها أو أن يغيرها.

وعلى كل حال، في كل من حالات العصاب الذي يرجع الى أسلوب الحياة في المستشفى Institutional neurosis وفي حالات غسيل المخ، يمكن للمريض أن يعود نسبياً الى حياته العادية، إذا تغيرت المؤثرات الموجودة في بيئته الاجتماعية، وإذا نقل الى بيئة اجتماعية صالحة

تحليل عملية غسيل المخ:

وحالة الدكتور فينسينت Vincent تعد حالة غسيل مخ تقليدية من حيث المناهج المتبعة فيها، ومن حيث النتائج التي تترتب على مثل هذه العملية:

١ ـ فأول خطوة من خطوات غسيل المخ هي تشكيك الفرد في هويته أو ذاتيته Identity فقد حاولوا اقناعه انه لم يكن طبيبا، وان اشتغاله بالطب لم يكن الا قناعا يستتر وراءه لكي يمارس مهنته الأساسية وهي التجسس، كذلك من قبيل نكران ذاته، انه لم يكن يخاطب باسمه وانما برقم فقط في السجن.

٢ ـ وكان يصاحب عملية نكران الشخصية هذا الشعور بالألم والخوف والاهانة Pain, fear and humiliation وما نتج عن وضعه في السلاسل وتعريضه لضوضاء انداده في السجن وحرمانه من اشباع حاجاته الضرورية.

٣ ـ وبعد ذلك فقد القدرة على تحديد موقفه بالنسبة لزملائه السابقين.

٤ ـ وقد اجبرته هذه الحياة الى العودة الى نوع من الحياة الطفلية التي يعتمد فيها على غيره كما يعتمد الطفل على والدته Infantile dependency.

٥ ـ كذلك من الأساليب التي استخدمت لالحاق الضعف والهزال به حرمانه من النوم ومن الطعام، وتعرضه لسلسلة طويلة من الاستجوابات التي كانت تحدث في أوقات غير منتظمة، وذلك بقصد فقدانه الاحساس الحقيقي بالزمن، الى جانب فقدان الشعور بهويته أو بذاته.

ويروي أحد الضباط المصريين الذين وقعوا في الأسر في يد السلطات الاسرائيلية أنهم وضعوه في مكان مظلم، وقدموا له

الوجبات في أوقات غير منتظمة أيضاً حتى وصلوا الى تقديم وجبة الفطور وبعدها بساعة واحدة وجبة العشاء، وذلك بقصد إحداث تشويش في احساس الفرد بالزمن، أو بالمكان أو الاتجاه.

أما الخطوة التالية من أساليب غسيل المخ، فهي اقناع الأسير أو الجاسوس المذكور بالذنب، ولم تقتصر على مجرد الاعتراف بأنه مذنب، ولكن أيضاً ضرورة تعلم الشعور بالذنب، ومعنى ذلك أن يصبح الشعور بالذنب شعوراً ذاتياً داخلياً

خيانة الذات وخيانة الآخرين:

ويلي ذلك مرحلة خيانة الذات أو الافضاء بكل اسرار الفرد، مع التشهير بالأصدقاء والزملاء، وبطبيعة الحال يقود هذا الى مزيد من الشعور بالذنب الحقيقي، ورغبة في التبرؤ من الناس، ومن المنظمات، ومن معايير السلوك، تلك التي كانت تكون جوهر الفرد في السابق، وبطبيعة الحال، تعود عملية الخيانة Betrayal للآخرين وخيانته لذاته، الى فقدان الولاء للماضي Loyalties to the past وبذلك يصبح معزولا عزلة تامة، ويشبه في هذه الحالة المريض الذي ينتزع مس بيئته الطبيعية ليوضع في مستشفى الأمراض العقلية المخصصة للمجرمين، حيث يواجه بنوع من التهم الغامضة التي لا يعرف عنها شيئاً، والتي عليه أن يعترف بها، وكلما حاول اعلان براءته Innocence اتخذ هذا على أنه عرض من أعراض مرضه، وفي نفس الوقت كل من يوجد في المستشفى يعمل على ارغامه على الاعتراف أو «الشفاء».

الانهيار المطلق:

وتعود هذه المواقف الى المرحلة التالية وهي مرحلة الصراع الكلي والخوف الأساسي Total conflict and basic fear حيث يوضع السجين في موقف يشعر فيه بحالة بدائية ومخيفة من الانفعال، ذلك الخوف من الفناء أو العدم المطلق لوجوده كشخص، هذه هي اللحظة التي يحدث فيها انهيار للتكامل الفسيولوجي والسيكولوجي للفرد، حيث ينتظر المرض اما الجسمي أو الجنون أو الموت Physical illness, insanity or death بعض السجناء استجابوا لهذه التجربة القاسية بالرغبة في الانتحار بحيث أصبحت فكرة الانتحار فكرة استحواذية عندهم أي أصبحت الشغل الشاغل لهم preoccupations وبعضهم استجاب بظهور بعض أعراض الهذاء Delusions أي الأفكار الخاطئة والهلوسة أي الخداعات السمعية والبصرية Hallucination التي يسمعها أو يراها المريض دون وجود حقيقي لها، كأن يسمع من يسبه أو يتهمه أو يناجيه

وعندما يلاحظ المسئولون عن السجن وصوله لهذه الحالة، فإن الاتجاه الذي يبدونه نحوه يجب أن يكون اتجاه عطف، ومع ذلك يطلبون منه الاعتراف حتى تنتهي محاكمته وتحل مشكلته، والقسر على الاعتراف يأتي من فكرة ان الذين يعترفون هم وحدهم الذين يكتب لهم البقاء على قيد الحياة. وما أن يبدأ الاعتراف حتى يقود الفرد الى حالة من الخضوع التام ومن مواصلة الاعتراف لإسكات القاضي الذي يصر على أن يتكلم السجين، والذي يطلب دائما مزيداً من

الاعتراف، والذي يحض السجين على الاعتراف باستمرار (كن رجلا. وقل الحقيقة. اعترف.)، تتكرر هذه العبارات كل دقيقة. اصرار القاضي يجعل السجين ضعيفا وفي النهاية يستسلم.

ويصل السجين الى مرحلة لوم ذاته على ماضيه، على كونه رأسماليا سابقا أو استعماريا سابقا، وتقود هذه المرحلة الى مرحلة الاعتراف التام والنهائي وتلخيص اعترافاته

هناك فروق فردية واسعة في مقدار التأثير بغسيل المخ:

ويجب أن نلاحظ أن هناك فروقا فردية واسعة في استجابة الأفراد لعمليات غسيل المخ، فهناك من يضطرب عقله، وهناك من يقتنع ويعتنق المبادىء الجديدة بسهولة، وهناك من يقاوم في عناد، فلكل فرد انفعالاته الخاصة، وعقائده ومواطن القوة والضعف، وتتوقف هذه الحالة على سمات شخصيته الأساسية، فالأشخاص الذين يظهر عليهم الاضطراب يعجزون عن التكيف مع القيم الجديدة والقديمة، ويميلون الى حالة الذهان العقلي Psyclosis.

أما الأشخاص الذين أظهروا المقاومة فكانوا يمتازون بوجود شعور قوي جداً للفلسفة الشيوعية، فالايمان القوي بالفكرة يجعل إزالتها أمراً عسيراً وصعباً.

ومن الناحية السيكولوجية، لوحظ على الأشخاص الذين خبروا تجربة الاصلاح الفكري Thought reform انهم قد أصبحوا أكثر حساسية لمشاعرهم ومشاعر الآخرين، كذلك أصبحوا أكثر

مرونة وثقة فيما يختص بالعلاقات الانسانية، وعلى العكس مما هو الحال مع معظمنا الذين لا يعرفون حدودهم العقلية، أي مواطن الضعف ومواطن القوة عندهم، وبالأخص يعرفون الجوانب الانفعالية من شخصياتهم، فلقد مروا بأقصى درجة من الألم الجسمي والنفسي، ومع ذلك مازالوا أحياء، كذلك فقد أجبرتهم سلطات الأسر الى تحليل أنفسهم، ومع ذلك خرجوا من المعركة وما زال لديهم شيء من الشعور باحترام الذات، وعن طريق عملية الاصلاح الفكري أدركوا وجود جوانب في شخصياتهم لم يدركوها من قبل، ولم يفكروا في وجودها، كذلك فإن المناهج التي طبقت معهم في عملية غسيل المخ يمكن إعادة تطبيقها للعلاج النفسي.

والحقيقة ان الفرد عندما يقع تحت ضغوط عنيفة قد يعترف بارتكاب جرائم لم يرتكبها بالفعل، وذلك لخلاص نفسه مما يلقاه من العذاب، وخاصة ان بعض المحاكمات الاستعراضية يستخدم فيها التعذيب الجسمي Physical torture، فالمعروف أن اسرائيل تستخدم أساليب تعذيب وحشية مع المعتقلين العرب، والمعروف أيضاً أن فرنسا كانت تستخدم أنواعا مختلفة من التعذيب مع المجاهدين والمجاهدات في الجزائر، ومن أمثلة ذلك الصدمات الكهربائية والكي بالنار وخلع الأظافر وما الى ذلك.

ولكن ليس في غسيل المخ أي جديد لم يعرف، فأسياخ الحديد المحمي كانت تستخدم منذ أقدم العصور لارغام المجرمين على الاعتراف.

There is plenty of evidence that the French in Algeria have used torture to extract information from the Algerians and their suspected sympathizers.

ولا نستطيع أن نتخيل أن الكهرباء أكثر تأثيراً من أسياخ الحديد المحمية التي استخدمت في الأيام الغابرة Red-hot-irons.

السحل دون عنف :

والواقع أننا يجب أن نلاحظ أن هناك أنواعاً مختلفة من التعذيب التي لا يستخدم فيها العنف Torture without violence ومن ذلك تعريض الفرد لعدد من المثيرات غير المنتظمة في الزمان والمكان بقصد فقدان الإحساس بالاتجاه والاحساس بالزمن، والاحساس الصحيح بالمكان Disorientation in time and space جانب المثيرات التي تسبب التعب وفقدان الاحساس بالذاتية personal identity، ومن هذه الوسائل ـ كما سبق ـ الحرمان من النوم ومن الطعام الجيد، وإعطاء السجين ملابس ضيقة وغير مريحة ill fitting clothes أو واسعة جداً أو بدون زراير أو بدون حزام وما الى ذلك من الأمور التي لا تسبب الشعور بالراحة.

ولقد حدث مرة أن اتهم أحد قواد الجيش بمحاولة قتل هتلر Hitler، وفي السجن انتزعوا منه بنطلونه وتركوه بدون بنطلون بحجة حمايته من الوقوع أثناء المشي والجري، والمعروف أن الملابس تكون جزءاً من شخصية الفرد.

ولقد قبض مرة على أحد الصحفيين في ألمانيا، وكان برنامج

تعذيبه عبارة عن الحرمان من النوم أثناء النهار، وأثناء الليل كان عليه أن يستيقظ كل خمس عشرة دقيقة، مع تسليط بعض الأضواء القوية في عينيه، وبعد هذه المدة انهار نهائياً وأصابته الرعشة والهلوسة Collapsed with shivering fits and hallucinations ومن شدة التعب والارهاق يفقد الأسرى القدرة على الحركة أو النشاط، ويعتزلون جميع المناشط الاختيارية، وقد يقضون اليوم كله جالسين يحملقون في وجوه بعضهم البعض، كما يفعل تماما مرضى الفصام العقلي المزمن Chronic schizophrenics، وعلى كل حال. فإن السجين الذي يظهر مقاومة بعد ذلك يوضع تحت نظام مؤداه أن يستمر استجوابه لمدة غير متناهية حتى يستسلم، ويمتاز هذا الاستجواب بالطول، وفيه يقوم المحقق بوضع قضايا عكس القضايا التي اعترف بها السجين، وعندئذ يضطر السجين الى سرد القصة من الأول بصورتها الحقيقية التي رواها عشرات المرات من قبل، وربما يكرر المحقق نفس الأسئلة مرات عديدة، بهذه الصورة يصل السجين الى حالة يختلط عليه الأمر بين أفكاره هو وأفكار المحقق، فيخيل إليه أن المحقق أصبح يعرف أفكاره الحقيقية.

التضاهر بالعطف عليه:

لا ينبغي أن نتصور أن عملية غسيل المخ أو الارغام على الاعتراف تتبع كلها مناهج قاسية، ولكن هناك مرحلة منها يعامل فيها الأسير بالعطف والحنان والشفقة، وتعرف هذه المرحلة بمرحلة العطف The stage of kindness فيبدأ المحقق في التعبير عن أسفه عن المعاملة

القاسية التي لاقاها السجين، كذلك يعاملون بكثير من الود والصداقة، هذه الصداقة الفجائية تجعل السجين يفقد توازنه الانفعالي، وتبدأ انفعالاته في التدفق، فيدلي باعترافات ويعمل ما يؤمر به، كذلك تتحسن أحواله داخل السجن، ويلتحق بجماعة فصول «إعادة التعليم» ومع هذه الجماعة يناقش الفرد كل عاداته الشخصية وتاريخ حياته وأفكاره وآرائه ووجهة نظره في الآخرين.

ويقوم زملاؤه بابلاغ كل ما يقول للسلطة داخل السجن، فعاداته مثل التدخين أو الشرب، وكذلك مخاوفه وآلامه يبوح بها لزملائه علنا وتنتزع منه العادات غير المرغوب فيها ويغرس فيه غيرها Implanted.

إن غسيل المخ عملية تستهدف تغيير عقول الناس وعقائدهم وأيدولوجياتهم Ideologies. ولكن هناك مبالغة من بعض الكتاب الذين يتصورون أن الفكرة Idea عبارة عن شيء يمكن غرسه في المخ أو يمكن حفرها في المخ.

An idea is a thing located in the brain which can be planted there or dug up at will[1]

عملية غسيل المخ تتوقف على قوة اعتقاد الفرد، ومدى رسوخ ايمانه، كما تتوقف على شخصيته وقدرته على المقاومة، وفوق كل ذلك تتوقف على الظروف التي تحيط به، ويجب أن نعترف أن الأفكار

---

١ ـ المرجع السابق.

تتكون نتيجة التفاعل بين الفرد وبين عناصر البيئة التي يعيش فيها، ومع ذلك فإن غسيل المخ محدود، فهناك أفكار تستعصي على اقناع الناس بها، فلا يمكن مثلا اقناع الناس الآن أن الأرض مسطحة أو أن سطح القمر يتكون من «الزبادي».

كذلك فإنه من المستحيل أن يقتنع الفرد بفلسفة أو بفكرة تكون بعيدة كل البعد عن شخصيته الحقيقية، وذلك لأن الأفكار عند الفرد لها وظائف أساسية تكيفه مع نفسه ومع البيئة Ideas and ideologies are functional.

فالفكرة التي يدين بها الفرد لا بد وأن تتصل بتاريخ حياته في الماضي، أو بظروفه في الحاضر، حتى المرضى تلعب أفكارهم دوراً هاماً في تكيفهم الشخصي، والمعروف أن اعتناق مبادىء المجتمع تساعد الفرد على الامتثال والخضوع له، Conformity to society

المراجـــــع

أولا: المراجع العربية:

- الدكتور عبدالرحمن العيسوي. أضواء على عملية غسيل المخ. مجلة الجندي المسلم. القوات المسلحة السعودية. جمادي الثانية ١٤٠٥هـ.
- الدكتور عبدالرحمن العيسوي. دراسات في علم النفس الاجتماعي. دار النهضة العربية. بيروت: لبنان.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Brown, J.A., Techniques of Persuasion, p. 268.
- Coon, D., Essentials of Psychology Exploration and Application, West Publishing Company, New York, 1982.
- English, H.B., A Comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical Terms, Longmans, 1958.